العنوان:	الرى والزراعة المسقية فى الجنوب
المصدر:	مجلة أمل
الناشر:	محمد معروف
المؤلف الرئيسي:	الطويل، محمد حجاج
المجلد/العدد:	مج 8, ع 24
محكمة:	لا
التاريخ الميلادي:	2000
الشهر:	اكتوبر
الصفحات:	7 - 15
رقم MD:	409136
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	EcoLink, AraBase, HumanIndex
مواضيع:	الفلاحون المغاربة ، الرى ، المياه ، الزراعة ، الاراضى الزراعية ، الانتاج الزراعى ، تاريخ المغرب ، الموارد المائية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/409136

الري والزراعة المسقية
في الجنوب

محمد حجاج الطويل*

ترمي هذه المداخلة فيما ترمي إليه:

1) ــ الوقوف عند بعض الظواهر المتعلقة باستغلال المياه والتنقيب عليها والتي ترجع إلى بداية العصر الوسيط وما زال العمل جارياً بها في أيامنا هذه.

2) ــ إثارة الانتباه إلى ضرورة الاهتمام بالتاريخ وعلم الآثار في الجنوب المغـــربي فقـــد توقف حيث تركه الأجانب منذ ما يزيد عن ثلاثين سنة، وأعني غياب سياســـــة جـــادة للبحث العلمي في هذا المجال، فالمطلوب من الجماعات المحلية والجامعـــــات والســـلطات الوصية والمجتمع المدني أن تلتفت إلى هذا المجال وتشجع العديد من المتطوعين من الأســـاتذة والطلبة والمهتمين.

3 ــ البحث في مسألة الري الكبير والوقوف عند نشأته وتدهوره. أما الري التقليدي

* أستاذ باحث بكلية الآداب بنمسيك / الدار البيضاء.

الصغير فما زال الفلاح الصغير مشتغلاً به في الجبال والأودية وفي الواحات ويمكن الوقوف على منشآته وعلى أدبياته في النوازل والفقه وفي الرواية الشفوية.

- يتميز المغرب الأقصى عن بقية المغارب بوفرة المياه وتنوع مصادرها، و لم يكن الماء مشكلة المغرب كما ادعت بعض الدراسات العربية والأجنبية (1)، بل كانت مشكلته الحقيقة وما تزال هي كيفية استغلال الثروة المائية والاستفادة منها على الوجه الأمثل (2) ولذلك بذل المغاربة منذ القديم مجهودات كبيرة للاستفادة من المياه المتوفرة سواء منها السطحية أو الباطنية، وحتى مياه الأمطار، استغلوها في سقي مزروعاتهم وغراساتهم في الأماكن الجافة وشبه الجافة وفي أوقات الشدة والجفاف. واللغة البربرية غنية بالمصطلحات والمفردات المرتبطة بالري وكذا أسماء الأماكن (3).

كان همّ الفلاحين في المغرب منذ القديم استنباط المياه الجوفية خاصة في المناطق التي تنعدم فيها المياه السطحية، ويصعب استغلالها، ومعلوم أن حفر بئر أو خطارة يكلف الكثير، و لم يكن الفلاح الصغير والمتوسط مستعداً للمغامرة والحفر أين ما اتفق، فكان يلجأ إلى أشخاص يدعون معرفة المياه الباطنية والكشف عنها فيشيرون عليه بالحفر في مكان يعينونه له. واليوم ورغم التقدم العلمي والتكنولوجي في ميدان التنقيب عن المياه الجوفية فإن تكاليفه الباهضة لا تجعله في متناول الفلاحين الصغار والمتوسطين. لذلك يلتجئ هؤلاء وحتى الفلاحين الكبار غير المستنيرين يلجؤون إلى الأساليب التاريخية العتيقة والتي تدخلت الشّعوذة لتجعل منها ضرباً من النصب والاحتيال أكثر منها حقيقة علمية ونعني محاولة التعرف على المياه الجوفية بواسطة أساليب تقليدية بسيطة تعتمد على سعف النخل أو أغصان الزيتون والتين الطرية وأحياناً على حفنة شعير، أوليقة صوف وفي أحيان أخرى الاكتفاء بملاحظة المكان وفحصه عند شروق الشمس وغروبها. وهكذا... ويسمي الفلاحون اليوم هؤلاء المدعين مهندسين ويحظون بمكانة اجتماعية وتكريم واحترام، وقد كانوا كذلك منذ العصر الوسيط الأعلى، فإكراهات ذلك الزمان هي

نفسها اليوم في هذا المجال وكأن هذه الفئة من الفلاحين ما تــزال تعيــش في العصــر الوسيط.

جاء في كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب لأبي عبيد البكري وهو مــن فقهاء ومؤرخي العصر الوسيط الأعلى ما يلي: «... وأخبرني غير واحد أنه رأى بمرســى بادس رجلاً قصير القامة مصفر اللون يكرمه أهل ذلك الموضع ويقدمونه ويذكرون أنــه ينبط المياه في المواضع التي لم يعهد فيها ماء عيوناً وآباراً. وأنه يخبر بقرب الماء وبعده وأنــه إنما يستدل على ذلك باستنشاق هواء ذلك الموضع لا غير... » (4).

لقد استفادت الزراعة بصفة عامة والزراعة المسقية بصفة خاصة مــن تقــارب الثورتين المرابطية والموحدية إذ وفرت الشروط الموضوعية لتطويرها من استقرار سياســي وأمن وسياسة جبائية واضحة ومحددة خاصة في العهد الموحدي (5) وأساساً فك الحصــار الذي ضربه المرابطون على سكان الجبال، ويعتبر العهد الموحدي الأول "فــترة الخلفــاء الثلاث الأوائل" أكثر استقراراً بعد الفترة الانتقالية من المرابطــين إلى الموحديــن. وقــد شهدت فترة حكم هؤلاء ما يمكن تسميته بسياسة مخزنية واضحة في ميدان الري وتعبئــة المياه، وما تبعها من إحياء الأراضي الموات واستصلاحها وتوسيع المســاحات الزراعيــة المسقية وتنويع المزروعات والأغراس وتحسين نسل المواشي والدواب والرفع من الإنتــاج وما إلى ذلك مما يمكن نعته بثورة فلاحية موحدية (6).

لم يكن الموحدون أول من اهتم بالري الكبير والمتوسط، بــل تجمــع المصــادر التاريخية الوسيطية على أن عامل الأمويين على المغرب عبد الرحمن بن مروان كان أول من اهتم بالري في منطقة سوس فهو الذي جلب الساقية إلى مدينة إيجلي، وأنه هو الذي عمــر وادي السوس على حد تعبير البكري (7). لكن المكتشفات الأثرية لم تؤكد ما ذهبت إليــه النصوص بل إن البكري نفسه لم يكن متأكداً من كلامه إذ افتتحه بعبــارة "ويقــال"، وكيفما كان الاختلاف حول الشخص أو الجهة التي دشنت أعمال الري في ســوس (8)، فإنه مما لاشك فيه أن جميع الدول والإمارات التي تعاقبت على حكم المغرب قد اهتمــت

بالمنطقة فالأدارسة أنفسهم سارعوا إلى بناء موقع لهم شرق حوض سوس "تامدولت" وبعد تقسيم المغرب بين أبناء إدريس كانت سوس من نصيب عبد الله، ويرجع هذا الاهتمام بالأساس إلى موقع سوس المرتبط بالمحاور التجارية الصحراوية، وأن الاهتمام بإيجلي وسوس كان بسبب خصوبة أراضيها ووفرة مياهها وخبرة فلاحيها مما جعلها تحظى بالأولوية من قبل الحكام قد توفير مواد التبادل التجاري مع السودان والمشرق والأندلس ولذلك جلبوا إليها ومنذ وقت مبكر عددا من المزروعات على سبيل التجربة مثل الأرز والنيلة والقنب لكن قصب السكر كان أكثرها نجاحا وإقبالا لمردوديته العالية وجودته وشكل أهم مادة لجلب تبر السودان بعد الملح (9). أما المنتجات الأخرى التي أعجب بها البكري والإدريسي ومن أخذ عنهما مثل أنواع الفواكه وأصنافها فلم تدخل إلا في نطاق التبادل الداخلي: «... إيجلي مدينة على نهر كبير كثير الثمر وقصب السكر ومنها يحمل السكر إلى جميع بلاد المغرب...» (10)، «ويعمل ببلاد السوس من السكر المنسوب إليها ما يعم أكثر الأرض» (11).

ما بين الفترة التي وصف فيها البكري بلاد سوس وما بين فترة قيام الدولة الموحدية عرفت المنطقة حروبا وفتن أتلفت المنشآت المائية وأرغمت الفلاحين على مغادرة أراضيهم وكانت الفترة الانتقالية من المرابطين إلى الموحدين وما صاحبها من حروب أكثر ضررا على المنطقة (12)، وبانتصار مصامدة الجبل على المرابطين انتصر المستضعفون (الفلاحون) (13) الذين راكموا عبر القرون خبرة كبيرة في استغلال مجالهم فأقاموا المصاطب على الأودية والمدرجات على سفوح الجبال وسقوها بمياه الجداول والينابيع، وباختصار تكونت لديهم تقاليد وأعراف في تنظيم الأراضي الزراعية وتوزيع المياه والاستفادة منها؛ وقد أضيفت إلى خبرتهم تجارب الأمم الأخرى بعد تكوين الإمبراطورية المرابطية والموحدية، فأدخل أسلوب الخطارات في عهد المرابطين في مدينة مراكش (14)، لينتشر بعد ذلك في باقي المناطق الجنوبية.

اعتبر العهد الموحدي الأول قفزة نوعية في ميدان الري والزراعة المسقية تنفيذا لمـا أسميناه بسياسة مائية مخزنية بدأت مع أول خليفة وهو عبد المومن فقد جلب الماء إلى مدينة مراكش من أغمات أي من مسافة تقدر بحوالي 30 كلم لسقي البحـــائر الـــتي أنشـــأها وغرسها بالأشجار المثمرة وخاصة الزيتون (15)، وسار ابنه يوسف على خطاه وتبعهم باقي السادة والأشياخ والأعيان لتبلغ هذه السياسة أوجها في عهد حفيده يعقوب المنصور الذي توسعت في عهده المساحات المزروعة عن طريق استصلاح الأراضي وازدادت الزراعـــة السقوية انتشارا في المناطق التي تتوفر فيها المعطيات الطبيعية الملائمة. وفي هذا الإطار جـاء مشروعه الكبير في الحوز الجنوبي المعروف في الخرائط الجغرافية الحالية بالبحيرة. (إقليـــم السراغنة). جاء هذا المشروع ليبين التفوق والسبق الموحدي في ميدان الري الكبير، إذ أقام سدا ضخما على وادي تساوت ورافده الوادي الأخضر بهندسة وتقنية جـــد متطـــورة استعملت فيها مواد البناء المحلية، ومنه انطلقت المياه في قنوات رئيسية بعرض أربعة أمتـــار وعمق يقارب المتر، انطلقت بالمياه إلى مسافات بعيدة ـــ حوالي 100 كلم ـــ لتتفـــرع إلى قنوات ثانوية وثالثية وصولا إلى الحقول والبساتين، يضاف إلى ذلك الأشـــغال الممـــهدة للأرض وإعدادها للسقي، وقد قدرت المساحة المسقية ما بين 2000 إلى 3000 هكتار (16).

فما هي الأهداف المتوخاة من المشروع اليعقوبي في هذه المنطقة؟

يبدو من تقارير الباحثين الأركيولوجيين ودراساتهم الدقيقة أن المشـــروع كـــان موجها بالأساس لزراعة الحبوب وذلك لتعويض غياب حبوب سهلي تامسنا ودكالة إثـــر الهجمة التي استهدفت ساكنة الإقليمين، فقد اتبع يعقـــوب المنصـــور "سياســـة الأرض المحروقة" للقضاء على خصوم الموحدين وأعـــدائهم من البرغواطيين في تامسنا ومصـــامدة دكالة (17). ومعلوم أن زرع دكالة كان المـــعول عليه في تموين العاصمة مراكـــش منـــذ إنشائها، وقد قيل في مزايا الموضع الذي اختير لبنائها: «... فنظروا له ذلك الموضع لكـــي يـــكون وادي نفيس جنانها، ودكالة فـــدانها وزمام جبـــل درن بيـــد أميرهـــا طـــول زمانها...» (18). واستمر اعتماد مدينة مراكش على زرع دكالة حـــتى بدايـــة ظـــهور

الموحدين: «... وأرسل صنهاجة تيسفرت إلى الخليفة سنبلة وقالوا له بادر زرع دكالة لا يدخل مراكش ولا تأخذها أبدا...» (19).

المشروع كما ذكرت آنفا وجه أساسا لتعويض النقص الحاصل في الحبوب، وتأتي الأركيولوجيا لتدعم هذا الرأي فقد اكتشفت إلى جانب السواقي والصهاريج الكبيرة في البحيرة مجموعة كبيرة من المطامير الواسعة (20).

في حوض سوس وتحديدا في المنطقة الممتدة ما بين تارودانت وتزنيت (في سهل هوارة) اكتشفت آثار ساقية كبيرة منطلقة من سد كبير يدخل ضمن مشروع مخزني ضخم لري المنطقة، وقد عقد P. Berthier صاحب المقال (21) مناقشة بعد تحديد أمكنة الآثار المكتشفة وتصنيف تقنيات بنائها قلت عقد مناقشة استبعد فيها كل الفرضيات التي قيلت بشأن المشروع السقوي ومال برأيه إلى كونها موحدية، لكنه لم يستطع حل إشكال عرض له ويتعلق بمطابقة الآثار الجزئية المكتشفة للمعطيات الطبوغرافية قصد ربطها بالمصدر أي ربط الساقية بالسد إذ استنتج أن الساقية التي سماها ساقية الواد الواعر (22) لا يمكنها أن تؤخذ من وادي سوس وترك الأمر معلقا في انتظار ظهور نصوص أو اكتشافات أثرية جديدة، وبرجوعنا إلى نص البكري وهو أقدم نص تحدث عن سوس وخيراتها الفلاحية وعاصمتها إيجلي، وقد اعتمد عليه الباحث الأركيولوجي P. Berthier وفضله على غيره: ذكر البكري مدينة إيجلي مرتين «إيجلي مدينة كبيرة سهلية بغربيها نهر كبير جار من القبلة إلى الجوف...» (23) ؛ «إيجلي مدينة على نهر كبير كثير الثمر وقصب السكر...» (24).

وفي تقديري أن الإشكال يمكن حله اعتمادا على معطيين:

1 ـــ مراعاة النص الأول للبكري والذي يفيد أن وادي سوس كان له رافد يقع غرب مدينة إيجلي واتجاهه من الجنوب إلى الشمال.

2 ـــ أن المشاريع الكبرى وخاصة مشروع البحيرة والمنطلق من سدود مقامة على روافد نهر أم الربيع تجعلنا بالقياس والمقارنة أن نقول أن التقنيات الموحدية لم تصل في تلك المرحلة إلى بناء سدود كبيرة على الأنهار العظمى فكانت المشاريع تقام على الروافد.

فما هو الهدف من المشروع وفي عهد أي خليفة تم إنجازه؟

إذا رجعنا إلى النصوص وتحديدا إلى الشريف الإدريسي المتوفى سنة 548 هـ/ 1154 م فإن وصفه ينطبق على عهد غير العهد الموحدي لأن الخلفاء الذين اشتهروا بإقامة المشاريع والأشغال الكبرى هم يوسف ويعقوب وهؤلاء امتدت فترة حكمهم ما بين 558 هـ/ 1163 م و595 هـ/ 1199 م أي بعد الشريف الإدريسي. قال الإدريسي واصفا منتجات سوس الفلاحية «... الفواكه أجناس مختلفة وأنواع كثيرة الجوز والتين والعنب العذاري والسفرجل والرمان الأمليسي والأترج الكبير المقدار الكثير العدد والمشمش والتفاح المنهد وقصب السكر (ليس على قرار الأرض مثله طولا وعرضا وحلاوة وكثرة ماء) (ويعمل ببلاد السوس من السكر المنسوب إليها ما يعم أكثر الأرض...» (25). فهذا الوصف كما قلت سابق على الموحدين. وجاء صاحب الاستبصار الذي كان حيا سنة 588 هـ/ 1198 م ليكرر ما جاء عند الإدريسي والبكري مع اختلاف بسيط (26). وهذا المراكشي المجهول الإسم كان موظفا عند الموحدين ومن المطلعين على مخططاتهم ومشاريعهم. مما يعني أن ما كانت تعرفه سوس من ازدهار فلاحي ورخاء مرتكز على قصب السكر وصناعة السكر قد ضعف بسبب الحروب المرابطية الموحدية. فالبيدق وهو من المقربين للموحدين وعاصر هذه الحروب لم يتحدث عن قصب السكر أثناء فتح عبد المومن لسوس بل ذلك أمزكور (الذرى) (27). وقد أضيفت إلى الحروب التغيرات المناخية التي مالت أكثر إلى الجفاف مما جعل الخليفتان يوسف ويعقوب يهتمان بالري في المنطقة قصد الحفاظ على إنتاج السكر الذي لعب دورا أساسيا في التجارة الخارجية، والعوامل نفسها ميل المناخ نحو الجفاف والحروب الموحدية المرينية وأساسا الصراع القبلي الجديد الهلاليون، والمصامدة وصنهاجة والزناتيون وبني معقل، كل ذلك جعل الإنتاج يتعطل

لينتقل إلى مناطق أخرى منها مراكش ونفيس ونواحي مراكش وسلا. ويبرز العمري (ت 749 هـ/ 1348 م) في مسالك الأبصار ضعف زراعة قصب السكر وصناعته في سوس بقوله: «... قصب السكر فهو كثير بجزائر بني مزغنان وبالسوس ونواحي مراكش وبسلا كثير ولولا عدم استقامة أهل السوس وتلك الأطراف وكثرة المراسم لكان كثيراً جداً» (28).

وعم الاستقامة التي أشار إليها العمري وهو من العهد المريني تعني الاضطرابات والحروب وتحديد سيطرة عرب معقل وقطعهم الطرق بل وتكوينهم بقبائلهم سياجاً منيعاً إمتد من البحر الأبيض المتوسط في الشمال الشرقي للمغرب إلى الجنوب الغربي حيث المحيط. ومع هذه الظروف الطبيعية والبشرية التي عاكست ازدهار الفلاحة المسقية في سوس واستمرارها فإن السعديين أدركوا في بداية أمرهم بقايا إنتاج السكر في سوس فاستعانوا بها على الجهاد إذ كانت خير مادة للتبادل التجاري سواء عبر البحر أو عبر الصحراء. لتنتقل بعد ذلك إلى مناطق أخرى (شيشاوة ونواحي الصويرة)، لملاءمتها لهذه الزراعة لتستقر اليوم في سهل الغرب. وفي هذا الانتقال مؤشر على تغير المناخ إذ يمكن أن نستنتج أن المناخ الذي كان سائداً في حوض سوس خلال العصر الوسيط الأدنى والأوسط كان مناخاً شبيهاً بالمناخ السائد حالياً في سهل الغرب.

الهوامش:

1) — عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، بيروت، 1983، ص. 60 وكذا المصادر التي اعتمد عليها.

2) — مجهول، الحلل الموشية في الأخبار المراكشية، البيضاء، 1979، ص. 145 و 146؛ البيدق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية الموحدين، الرباط، 1971، ص. 63؛ ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، بيروت، 1956، ص. 447.

3) — راجع هوامش كتاب التشوف إلى رجال التصوف، تحقق أحمد التوفيق، الرباط، 1984.

4) — أبو عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، باريز، 1965، ص. 102.

5) — راجع مادة الجباية في معلمة المغرب بإشراف الأستاذ محمد حجي؛ وكذا الروض الهتون لابن غازي، لأخذ فكرة عن السياسة الموحدية اتجاه الفلاحين، الروض الهتون الرباط، 1964، ص. 17 و20 و23 و24؛ محمد

الطويل، الفلاحة المغربية في العهد الوسيط، (مرقون)، كلية الآداب بالرباط، 1988.

6) ــ المرجع السابق.

7) ــ أبو عبيد البكري، المغرب، مرجع سابق، ص. 161 و162.

8) ــ نفسه؛ وأيضاً P. Berthier, L'aquedus de l'oued ouaar et le Bassin des Gaha, H. T. Vol. IV, fascicule 1-2, 1963.

9) ــ الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الطبعة الإيطالية، نابولي، بدون تاريخ، الجزء الثالث، ص. 227.

10) ــ البكري، المغرب، مرجع سابق؛ والإدريسي، نزهة المشتاق، مرجع سابق.

11) ــ المصدر السابق.

12) ــ البيدق، أخبار المهدي...، مرجع سابق؛ ابن القطان، نظم الجمان، تحقيق محمود علي مكي، تطوان، بـــدون تاريخ، ص. 211 و212.

13) ــ الفلاحة حسب ابن خلدون مهنة المستضعفين، وقد جعل ابن صاحب الصلاة ذلك عنواناً لكتابه "كتـــاب المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلم الله أئمة وجعلهم الوارثين". وفي العنوان افتخار بالانتصــــار فـــابن صاحب الصلاة كان موظفاً موحدياً.

14) ــ الإدريسي، نزهة المشتاق، مرجع سابق، ص. 233/3.

15) ــ مجهول، الحلل الموشية، مرجع سابق، ص. 145 و146؛ ومعلمة المغرب مادة (بحائر)..

16) ــ Ch. Allain, Une organisation agricole Almohade dans la Bhira, Hesparis, 1954.

17) ــ مجهول، الحلل الموشية، مرجع سابق، ص. 147؛ الناصري السلاوي، الاستقصا لأخبـــار دول المغـــرب الأقصى، الدار البيضاء، 1954، ج 2، ص. 108، 113، 114.

18) ــ ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب، بيروت، 1983، ج 4، ص. 19.

19) ــ المرجع السابق.

20) ــ Ch. Allain, Une organisation..., op. cit., Hesparis, 1954.

21) ــ P. Berthier, L'aqueduc..., op. cit., H. T, Vol. IV.

22) ــ نفسه.

23) ــ البكري، المغرب، مرجع سابق، ص. 162.

24) ــ نفسه، ص. 161.

25) ــ الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق، مرجع سابق، ج 3، ص. 227.

26) ــ مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، الأسكندرية، 1958، ص. 212.

27) ــ البيدق، أخبار المهدي، مرجع سابق، ص 63.

28) ــ العمري، مسالك الأبصار ضمن ورقات عن الحضارة المغربية في عهد بني مرين للمرحوم محمد المنوني، الرباط، 1979، ص. 289.